

دراسة هيرمنيوتيكية لمسرحية: مأساة الدكتور فوستس
كريستوفر مارلو

A Hermeneutic Study of Christopher Marlowe's Tragical History of
Doctor Faustus

علي عبد الله حيدر
جامعة الكويت

تاريخ الاستلام: 2025/02/21 تاريخ القبول: 2025/02/26 تاريخ النشر: 2025/03/12

ملخص:

لأن كان موضوع هذا البحث يبدو متداولاً، إلا أن ما سيمنحه الجدة والأصالة هو تناول والمقاربة الهرمنيوتيكية منهاجاً سيسافر ويمزج ويتنقل بين موضوعات مطردة مثل الأنثروبولوجيا والفلسفة واللاهوت وعلم النفس.. الأمر الذي سييسر للبحث إلقاء نظرة أشمل وأعمق؛ ستسعه في تأويل النص الدرامي محل الدراسة. مسرحية "مأساة الدكتور فوستس" تحمل بثناياها مسائل الغيبيات وما يعتريها من ممارسة السحر من قبل هذا العالم اللاهوتي الذي تيقن أن كل شيء مباح ومحرم في الوقت نفسه، لكن الرغبة الدفينة التي تسكنه في مضارعة الإله في امتلاك الكون والسيطرة عليه لا محالة تقوده إلى العدمية واللعنة الأبدية.

سيعمد البحث إلى الغوص في النفس البشرية وما يعتريها من هواجس تجعلها تنهج سبل الشقاء والهلاك؛ وذلك عبر تحليل درامي لمفاصل هذا النص الذي أثار الكثير من الجدل بين النقاد في منبته بألمانيا، ولأن هذه الغيبيات لا تزال متفشية، ترغب الدراسة في إمطة الغطاء عن مكائدها، محاولة تفكيك بني النص المسرحي، والعمل على تأويل دلالاته وأفكاره الفاستسية، وعوامله المثيرة بغية الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتمحور حول الصراع بين الخير والشر.

كلمات مفتاحية: المسرح؛ الهرمنيوتيك؛ المأساة؛ الفلسفة؛ فوستس كريستوفر مارلو.

Abstract:

Although the topic of this research may seem commonplace, its novelty and originality lie in its approach and hermeneutic

methodology. The study traverses and interweaves consistent themes such as anthropology, philosophy, theology, and psychology. This comprehensive and profound perspective will aid in interpreting the dramatic text under examination. The play "*The Tragical History of Doctor Faustus*" contains within it issues of metaphysics, intertwined with the practice of magic by this theological scholar who is convinced that everything is both permissible and forbidden simultaneously. However, the deep-seated desire within him to rival God in owning and controlling the universe inevitably leads him to nihilism and eternal damnation.

The research aims to delve into the human psyche and its obsessions that drive it toward paths of misery and destruction. This is achieved through a dramatic analysis of the pivotal elements of this text, which has sparked much controversy among critics in its origin, Germany. Since such metaphysical concerns remain prevalent, the study seeks to uncover their underlying causes, attempting to deconstruct the structures of the dramatic text and interpret its Faustian meanings, ideas, and intriguing realms. The ultimate goal is to address questions surrounding the eternal conflict between good and evil.

Keywords: Theatre; Herminoitique; Tragedy; Philosophy; Faustus, Christopher Marlowe

المؤلف المرسل: علي عبد الله حيدر

1. مقدمة:

يكتسي البحث أهمية من حيث تناوله لموضوع شائك كثيرا ما شغل ولا يزال يشغل الإنسان عبر العصور، حتى وإن ادعى عدم اكتراثه به، بخاصة مع العولمة إذ أصبح العالم قرية صغيرة، وأضحت ويلات تعاظم الغيبيات أو التضخم منها مثارا للخوف وطرح الأسئلة حول كيفية تحاشيها، وعدم التضخم من آثارها الوخيمة في الفرد والمجتمع. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نظرا لما للأساطير من وجود وتأثير في المرجعية الأنثروبولوجية للشعوب بدءا من الأحاجي والحكايا التي يحفل بها ريفرتوار التراث العالمي والعربي منه. ونظرا لأهمية هذا

النص المسرحي المثير والأثير، فقد تناولته كوكبة من المبدعين على غرار ما نجده عند "چوته" في مسرحيته (فاوست)، و"بول فاليري" (فاوست كما أراه)، و"أحمد علي باكثير" (فاوست الجديد)، و"عصام عبدالعزيز" (ليلة فاوست الأخيرة).

وعليه، تكمن إشكالية هذا البحث في محاولة تسليط الضوء على عالم الغيبيات خصوصاً عالم السحر وأثره الوخيم في الإنسان؛ وذلك من خلال دراسة مسرحية مأساة د. فوستس لكريستوفر مارلو التي ستسعف البحث في تقصي الأسباب والمسببات المرتبطة بأعماق الشخصية الدرامية والتي جعلت فوستس يسلك هذا الطريق ويقع في تابوهات دينية محرمة. واستناداً لما سبق وتبعاً لطبيعة موضوع البحث يجدر بالإشكالية أن تطرح ثلة من الأسئلة هي على النحو الآتي: ما هي التركيبة النفسية لهذه الشخصية الدرامية المعقدة التي كان لها التأثير السلبي الذي كاد يصيب بعض المتفرجين بالجنون؟ ثم ما الأسباب التي أدت بها إلى هذا الضلال الذي كاد يودى بها إلى الهاوية؟ وما هي مكونات البناء الدرامي التي تبناها مارلو وفق حبكة نسجت أحداث النص وصاغتها في سرد درامي كله إثارة وقلق وتوتر ورعب وعنف واستفزاز وقهر؟ وما هي النتائج التي خلص إليها فوستس، وهل يمكنها أن تكون عبرة لمن يسلك عوالم الغيبيات لتحقيق مآربه إيجابية كانت أو سلبية؟

إذا تعلق الأمر بالمنهج المتبنى في هذا البحث، فهو المنهج البيرمينيوتيكي التأويلي ومما لا ريب فيه أن الباحث لجأ إليه ولم يجد عنه بديلاً لأنه الأكثر مواءمة لتفسير الظواهر المعقدة التي يحفل بها هذا الموضوع، كما أنه سوف يسمح له بالتوسع في موضوعه لارتباطه بالأساطير وعلم اللاهوت وعالم السحر وغموضه، مما سيجعل البحث أكثر غزارة في الإحاطة بطبيعة الموضوع الدرامي المرتبط بموضوع السحر وأسباب اللجوء إليه، فضلاً عن التركيز على شخصية فوستس المركّبة، كما جسّدها لنا كريستوفر مارلو، مع تأويل بعض المواقف الدرامية.

واستناداً إلى ذلك نجد أن "رولان بارت" يرى أنّ النص الدرامي "ليس مجرد كيان مغلق تشغله معاني محددة تنحصر مهمة الناقد في أن يفك مغاليقها، وإنما أن يراه بوصفه تعديّة على نحو لا يقبل الاختزال، وبوصفه لعباً للدلالات لا ينتهي ولا يمكن تسميره في النهاية إلى مركز أو جوهر أو معنى وحيد"¹، ومفاد ذلك ما يختزل من الآراء النقدية لهذا

الناقد الفرنسي أن القراءة عبارة عن متواليات لا نهاية لها، واللعب على تمحيص معانيها ودلالاتها لا نهاية لها أبداً.

إن عالم الإنسان وإرادته ودوافعه الداخلية هي التي تقوده بل وتدفعه إلى تحقيق ما يصبو إليه حتى ولو قاده هذا الطريق إلى الجحيم. ويدرك فوستس باعتباره عالماً لاهوتياً أن كل شيء مباح ومحرم، ومع ذلك فإن الدافع الداخلي، ورغبته الدفينة في محاكاة الإله، وفي السيطرة على هذا الكون هي التي تقوده إلى عالم العدم واللعنة الأبدية.

سيعتمد البحث إذن إلى استكشاف المراحل النفسية والدرامية التي يمر بها فوستس في هذا الطريق الشاق والمحرم، ويتحمل تبعات ونتائج هذا المسرب المشين بحيث يستسلم رجل الدين فيبيع روحه للشيطان.

ويتوج العمل بالندم والتوبة والاستغفار.. ومن خلال تلك اللحظات الدرامية عبر الفصول يمكن فهم المضمون الدرامي للعمل من خلال التأويلات الموائمة لمضمون النص المسرحي. مع العلم أن الخطيئة تتبعها الإدراك العقلي والحسي والوعي بهذه الخطيئة حيث يأتي الندم بعدها ليمسح جريمتها النكراء.

1- مؤهلات الدراماتورج مارلو الإبداعية والخيالية:

لا شك في أن خيال الكاتب الدرامي يلعب دوراً هاماً في خلق العمل الفني، إذ إن هذا الخيال سوف يتجسد من خلال شخصيات ومواقف وصراعات وكلمات وحوارات، وكل ذلك سوف يعكس رؤية الكاتب وهدفه ومضمون كتابته للعمل الفني.

والخيال قد يدفع الكاتب إلى أن يستقي موضوعات ترتبط بعوالم أخرى غير واقعية مثل عوالم ميتافيزيقية تتعلق بالغيبيات كالتطرق إلى العالم الآخر بعد الموت، مجسداً الجحيم والنعيم، أو التطرق إلى موضوع عالم السحر وغرابته والغموض الذي يرتبط به، وخصوصاً إذا تعلق الأمر بخضوع الإنسان للشيطان.

على ضوء ما تقدم نجد أن النص الدرامي الذي كتبه "كريستوفر مارلو"، متخذاً من شخصية د. فوستس موضوعاً لمسرحيته (مأساة د. فوستس)، هو نص درامي فلسفي لاهوتي يتخطى عالمنا الواقعي، لكي ينطلق بنا إلى عالم غير محدود القدرات ونعني به عالم السحر وطقوسه المرتبطة بشعائر هذا الفن المحرم الذي أطلق عليه اسم الفن الأسود.

إن مارلو يتخذ من شخصية الدكتور فوستس، عالم اللاهوت والمتبحر في علم الأديان، الشخصية الرئيسية لعمله؛ حيث نرى التحول الدرامي بأروع صوره حين يهجر فوستس عالم الدين، وعالم الروحانيات، ويتخلى عن الإله، متّجهاً إلى عالم السحر، لكي يحقق من خلاله كل رغباته اللامحدودة، غير عابئ بأي قوى سماوية حتى ولو كانت تلك القوى تتمثل في الإله ذاته.

ويجدر بنا أن نذكر أن تلك الشخصية، ونعني بها شخصية فوستس، قد دأبت خيال بعض الكتّاب؛ وذلك لغرابة الموضوع من ناحية، ومدى تأثيره المحير في المتلقي من ناحية أخرى مثلما تم ذكر ذلك سلفاً.

2- تأويل أيديولوجية مارلو في صنعه لشخصية فوستس

من خلال الربط بين الموضوع / النص وشخصية د. فوستس وبين مارلو، كما نعرفه جيداً، يجب علينا أن نعي كل ذلك لكي نستنبط ماهية الموضوع وهدفه من خلال تعديده الرؤية، فضلاً عن التطرق إلى عوالم ميتافيزيقية ترتبط بالخالق والجحيم.

يرى "تيري إيجلتون" "أنّ تطابق معنى العمل مع ما عناه المؤلف وقت الكتابة لا يقتضي أن يكون للنص تأويل واحد ممكن، فقد يكون هناك عدد من التأويلات المشروعة المختلفة، ولكنها كلها ينبغي أن تتحرك ضمن التوقعات والاحتمالات النمطية التي يُتيحها المؤلف.. ذلك لأن الدلالات تتنوع عبر التاريخ بينما تبقى المعاني ثابتة والمؤلفون يقدمون معاني إما القراء فيعينون الدلالات" ¹.

ينبغي الإشارة في هذا المقام وبعد إثارة مصطلح التأويل أنه قد ورد ذكره مرات عديدة في مواطن كثيرة بالقرآن الكريم؛ فعلى سبيل المثال في سورة الكهف تلك الآية المهمة من خلال الحوار الذي دار بين سيدنا موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وبين الرجل الصالح: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ^{٧٨} iii. وأيضاً "﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ^{٨٢} iv. وفي سورة الأعراف ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ^{٥٣} v. كذلك الشأن في سورة يوسف ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ ^٦ vi. وأيضاً ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ^{٢١} vii. ويقول يوسف أيضاً ليعقوب ﴿يَا أَبَتِ هَذَا

تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا^{viii}. بينما يقول أتباع فرعون إزاء عجزهم تأويل أو تفسير حلمه ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ مَوْماً نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾^{ix}.

وعلى ضوء السند الديني القوي، فإن هذا المصطلح معناه التفسير الذي يعتمد على الثقافة والمعرفة المتصلة بموضوعات كثيرة، وبالتالي تكون لدى الباحث إمكانية ربط النص الدرامي بقضايا إنسانية مهمة ومؤثرة مثل عالم السحر واللاهوت والفلسفة، فضلاً عن الرغبات الإنسانية الجامحة التي تنقل الإنسان من القدرات المحدودة إلى قدرات غير محدودة.

هذا ويحسن بالبحث ان يرجع إلى نشئة مصطلح الهيمنيتيكا الذي كان بلا شك خلاصة اتجاه الفكر الفلسفي الغربي بعد الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، هذا الاتجاه الذي رأى النور مع شليماخر وقد سماه بذلك فلاسفة الالمان، كما كان كل من دلتاي وهيدغر وغادامير وبول ريكور من حملته في فرنسا. مع العلم أن الهيمنيتيكا المعاصرة تنظر إلى التفسير باعتباره مطلباً وتوجهاً فكرياً له من الضرورة بمكان في عصر طغى عليه التعقيد والاغتراب والغموض، وهذا ما يجعلنا لا ندرك الأمور بظاهرها بل بما يتم تفسيرها وتعليلها به.² ونص الدكتور فاوستوس يتطلب الفهم والإفهام والتفسير والتأويل الذي من شأنه أن يقرب مفاهيم النص الفلسفية واللاهوتية والميتافيزيقية من المتلقي.

3- ماهية السحر وأبعاده الميتافيزيقية المدمرة

قبل الشروع في مسألة بُنى النص الدرامي البالغ الأهمية، والمحمّل بالأفكار اللاهوتية والفلسفية وبالدلالات النفسية، يجدر بالبحث إثارة الحديث عن هذا العالم الغيبيّ والمحجّر؛ عالم السحر بغموضه، وشعائره، ودسائسه، وطلاسمه، والذي يعتبر في حدّ ذاته من المحرمات اللاهوتية في جميع الأديان السماوية، بل وفي المجتمعات الإنسانية عموماً؛ حيث يطلق عليه اسم الفن الأسود، ويمارس هذا العالم طقوسه في الخفاء، وكأنه يحس بالعار بما يمارسه من تعاويد ومخططات تتسم بالغربة والتعقيد بالنسبة للإنسان العادي، أو لعل بعض السحرة يستترون في إعداداته لمن يقلق راحتهم وكلهم حرص على

² ينظر، هشام معافة، التأويلية والفن عند هانس جيورج غادامير، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر 2010، ص19

إنجاحه، ولكنهم بالرغم من خصوصيتهم التي تميزهم عن الآخرين دهاء وخداعا سيظل،
ويصبح السحرة ملعونين، ومنبوذين في كل الإحن والملل قديما وحديثا.

السحر هو فعل يؤدّى من خلال تعاويد وشعائر خاصة، وسريّة لا يعرفها غير الساحر
الذي يمارس تلك الأفعال، والتي قد تكون مصحوبة ببعض التعويذات والطلاسم؛ وذلك
بغرض تحقيق مصالح لأحد الأشخاص أو لإلحاق الضرر بالآخرين.

أما من الناحية اللاهوتية، فنجد أن السحر من الأفعال المحرمة مثل التابوهات التي
تجلب اللعنة على من يستخدم السحر لإلحاق الأذى بالغير أو لتحقيق مصالح خاصة،
وفي القرآن الكريم، أيضًا، ورد التحريم والتحذير من استخدام السحر أو الاستعانة
بالشياطين والجان؛ إذ يقول تعالى: "وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ
وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ"³. تشير الآية إلى تأكيد الله على كفر
الشياطين لأنهم يعلمون الناس السحر، ويبين تعالى أن من تعلمه، سواء عمل به أم لا،
يورثه الكفر. وفي آية أخرى يبين تعالى عن أضراره التي من شأنها أن تفرق بين الزوج وزوجته
في قوله عزّ من قائل: "فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ"⁴. ذلك أن السحر
مضرة خالصة لا نفع فيه لا دينيا ولا دنيويا، ولذلك عدّ من الموبقات السبع قرينا للشرك
بالله.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن السحر والسحرة وعالم الشياطين من المحرمات والخطوط
الحمراء التي لا يجوز تخطيها في جميع الأديان، وهذا ما حملته شخصية فوستس كما رسّ
بنيتهما مارلو وجعلها تتبدى شيئا فشيئا عبر المراحل الدرامية التي قادته من عالم لاهوتي
يؤمن بالخالق إلى إنسان يتخلى عن قوى السماء وعن الإيمان لتحقيق أهدافه.

مع العلم أن موضوع البحث يرتبط بأسطورة ألمانية تسرد قصة الرجل الذي باع روحه
للسيطان من أجل الحصول على الشهرة والمتع الدنيوية.

والملاحظ أن ذلك العصر قد ساعد على انتشار السحر وفن العرافة، فقد كان "حديث
السحر والسحرة يشغل الأذهان في جميع أنحاء أوروبا إلى درجة لا تكاد تتصورها، ولم يكن
بغريب أن يؤمن الناس ببراعة فاوست السحرية ويصدقوا مزاعمه"^x. وهذا ما تثبت تفشيته

³ الآية 102 من سورة البقرة.

⁴ الآية نفسها.

لدى البشرية جمعاء عرباً وأوربيين، وليس مثلما يشيع اعتقاد انتشاره في الأوساط العربية فقط وقد ربطوا ذلك بتخلفهم.

4-التعالق والتناص بين مارلو وفاوست

بما أن نقاء النصوص مستحيل التجسيد مثلما أشارت إلى ذلك الناقدة البلغارية جوليا كريستيفا Julia Kristeva واصطلحت عليه تناصاً، علماً أنه يتمثل في كون أن كل كتابة تقع دائماً ضمن الأعمال التي تسبقها، ولا يمكنها أبداً أن تمحو ما سبقها، والتناص هو "الفعل الذي يعيد بموجبه نصٌ ما كتابة نص آخر، والمتناص هو مجموع النصوص التي يتماس معها عمل ما قد لا يذكرها صراحة..."⁵ و مسرحية "د/ فوستس" من تأليف مارلو تتقاطع بل تستلهم مما ورد لدى "فاوست"، لذلك يحسن الوقوف عند المعالجة الدرامية التي قدمها مارلو من خلال هذا الموضوع الإشكالي المثير، ومن خلال تجسيده لشخصية د. فوستس ومراحل حياته التي مرّ بها، إذ أن شخصية د. فوستس هي أشهر شخصية ربطت بين الإنسان وبين عالم السحر، بل هو النموذج الكامل والأمثل لتلك التجربة الإنسانية التي مرّ بها د. فوستس، والتي وافق معها على منح جسده وروحه للشيطان لكي يتخطى الحدود البشرية المحدودة، ولكي ينطلق إلى عوالم غيبية غير محدودة القدرات البشرية.

لقد أجلى مارلو منذ البداية الرغبات الداخلية لتلك الشخصية الدرامية، ومدى إرادته وإصراره على تحقيق آماله غير المحدودة التي تنبعث من جوانيته.

إن مارلو يجسّد لنا المراحل الدرامية التي مرّ بها د. فوستس إلى حين نهايته المحتومة، لكي يقوم بالتركيز على طموحات الإنسان غير العادية، فضلاً عن السقوط في الخطيئة، ثم محاولة الاستغفار عن اقترافها مبيناً ضعف الإنسان أثناء مواجهة الذات. إنه عالم لاهوتي، وعلى وعي تام بكل الشرائع السماوية التي تحرّم الخطيئة والسحر^{xii}.

وبالرغم من معرفة د. فوستس بذلك إلا أن رغبته في امتلاك العالم، وتحقيق أحلامه بالخروج من الحدود الإنسانية إلى عوالم أخرى، أخذ على عاتقه فعل أي شيء يحقق له أحلامه ورغباته الداخلية حتى ولو اضطر إلى إنكار الأديان والتخلي عن السيد المسيح وبيع

⁵ ناتالي بيبقي غروس، مدخل إلى التناص، تر عبد الحميد بورايو، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق 2012، ص11.

روحه لإبليس، وذلك عن طريق صك يوقعه بدمه تأكيداً على جدية الصفقة التي من خلالها ستتحقق له كل أحلامه.

ومن ناحية أخرى نجد أن موقف فوستس هنا، بتحالفه مع إبليس، يتخذ موقفاً مضاداً للخالق ذاته، أي أنه سينضم إلى إبليس في مواجهة الخالق. ومن ثم نجد أن مأساة د. فوستس تكمن في ذاته وليست وليدة نبوءة أو قرار من الآلهة مثلما نجد في الدراما الإغريقية.

إن استخدام مارلو للجوقة في البناء الدرامي لعمله يلقي الضوء على حبكة الموضوع منذ البداية من ناحية، ومن ناحية أخرى نستطيع تتبع المراحل الدرامية لشخصية فوستس عبر المواقف التي مرّت بها تلك الشخصية وبطريقة ملفتة. ولا شك في أن استخدام الجوقة هنا جاء نتيجة ما تأثر به مارلو من الجوقات الكنسية التي كانت تنشد في الكنائس، أو تتغنى ببعض الترانيم عن الشهداء والقديسين، والتي كانت معروفة في العصور الوسطى في العصر الإليزابيثي أيضاً.

إن تحوّل عالم لاهوتي برّ أقرانه في مجال الأديان واللاهوت، ثم اندفاعه إلى هجر كل ذلك إلى عالم السحر والاعتماد على الأعمال الشيطانية، يكسب تلك الشخصية الدرامية نوعاً من الغرابة والسحر الدرامي الذي نجده في المواقف الدرامية المتتابعة التي تضفي الإثارة والتأثير الدرامي أيضاً على المتلقّي سواء في ذلك قارئ النص أو مشاهد العرض المسرحي.

الجوقة: يجب أن نعرض لتاريخ فوستس بما فيه من تقلبات خيرها وشرها^{xii}.

أي أننا سنعبّر معه، من خلال المراحل الدرامية التي مرّ بها، من عالم لاهوتي إلى إنسان ملحد ينكر الدين والخالق. إنه "يمارس أعمالاً شيطانية. والآن، وقد أتخم بكل ما لدى العلم من هبات ذهبية، راح يلتهم في شراهة ذلك الفن الملعون، ولم يكن هناك شيء أحلى لديه من السحر، الذي أصبح يفضلّه على أهم متعة له"^{xiii}.

لقد احتقر كل العلوم والمعارف التي لا تفيد من وجهة نظره في شيء، معترفاً أمامنا بقدرته المحدودة كإنسان، وهذا ما نراه تأويلاً لأسباب أفعاله وارتباطه بالسحر أيما ارتباط.

لقد أدرك أن كل تلك المعارف لا تقدّم له شيئاً لأنه سيظل كما هو إنساناً ليس هناك من طريق لتحقيق أحلامه سوى السحر والتحالف مع إبليس.

وفي محاولة لتبرير أفعاله يؤكد أننا "إذا ادّعينا أننا منزهون عن الخطيئة خدعنا أنفسنا، وكنا كاذبين فماذا إذن؟ قد ندفع إلى الخطيئة، ومن ثم نموت: نعم، يجب أن نموت موتاً أبدياً"^{xvi}.

لقد جعل مارلو فوستس ينطق بتلك الكلمات، لأنه لا يوجد إنسان بلا خطيئة، وهذا يذكّرنا بكلمات السيد المسيح حين قال للحشد الذي أراد رجم مريم المجدلية "من كان منكم بلا خطيئة، فيرمها بحجر"^{xvi}.

فهل كان فوستس يسوّج لنفسه أفعاله؟ حيث إنها تنطلق من أقصى أعماقه للخروج من الحدود الإنسانية إلى عوالم أخرى غير محدودة، حتى ولو تم ذلك من طريق خطيئة تعاطي السحر. ولكن تصميم فوستس على تحقيق رغباته جعله لا يبالي بتلك الآيات اللاهوتية، وإن إرادته وتصميمه على تحقيق كل مآربه، كانا أقوى من الجانب الديني لديه. وهذا يفسر لنا إصراره على المضي قدماً في هذا الطريق. بل إننا وجدنا أن مارلو قد استمد من روح العصور الوسطى ملاك الخير وملاك الشر لكي يوظفهما خدمة للنص الدرامي من ناحية، ولبيان أن كلمات كل منهما نابعة من عقل فوستس ذاته وهو عقل في حالة صراع نفسي. فملاك الخير يحذره من مغبة تلك الخطيئة التي يقبل عليها، بينما ملاك الشر يدفعه إلى المضي في طريقة لتحقيق أحلامه.

ملاك الشر: امض يا فوستس في ذلك الفن الشهير الذي يحوي كل كنوز الطبيعة: ولتكن على الأرض كالإله في السماء سيداً ومتسلطاً على سائر العناصر^{xvii}.

فهل كان فوستس المعباً بكل العلوم والثقافة الغزيرة يرغب في أن يصبح مثل الإله من خلال تعلم فنون السحر؟ إن رغبة فوستس الدفينة في كسر وتخطي الحدود الإنسانية المحدودة والخروج إلى نطاق التحرر واكتساب القوة والسيطرة على العالم جعله لا يرى إلا رغبته في تحقيق أحلامه غير المحدودة. بل إن فكرة الإله تتكرر أكثر من مرة.

ويمكن استخلاص أن فوستس قد رفض جميع العلوم، بل واحتقر الطب أيضاً، ذلك لأن الطب لا يستطيع أن يحيي الموتى "هلاً استطعت أن تهب الناس الخلود، أو تعيد الحياة إلى الموتى والهالكين"^{xviii}.

إن طموحه الداخلي بالتالي يدفعه إلى محاولة التشبه بالآلهة في قدراتها غير المحدودة، ومن ثم ليس أمامه سوى ارتياد طريق السحر.

فوستس: ... سأمارس الليلة فنون السحر. وإن لقيت حتفي في سبيل ذلك!!^{xix}.

إن مارلو قد كشف لنا أعماق ورغبات فوستس كلها من خلال المواقف والحوارات الدرامية، وأيضًا من خلال المونولوجات التي أظهرت تلك الشخصية الدرامية عارية أمامنا بكل طموحاتها ورغباتها الشيطانية. لقد رغب فوستس في الحصول على القدرات الخارقة لكي يستطيع أن يحيي الموتى ويهب الناس الخلود.

5- الصراع المتوثب بين الخير والشر والحياة والموت في نص د/ فوستس وتجدر الإشارة إلى أن هناك توافقًا تامًا بين كلمات ملاك الشر وبين العالم الداخلي لـ فوستس، وقد صاغها مارلو بذلك وفق تصاعد درامي يكشف الغطاء من خلاله عن أعماق ورغبات فوستس، إذ إنه آمن بأن سلطان الساحر أقوى من أي سلطة أخرى حتى ولو كانت سلطة الملوك.

فوستس: ... فسلطان الساحر أقوى من سلطانهم إذ أنه يمتد بامتداد العقل البشري^{xx}.

والنتيجة الحتمية التي تتوافق تمامًا مع رغباته الداخلية وطموحاته التي ليس لها نهاية هي أن الساحر الحاذق إله قوي:

"فلتوطن نفسك يا فوستس على ذلك أحد هذه الآلهة"^{xxi}.

ويبدأ فوستس في دراسة علم وفن السحر من خلال الكتب الملعونة وبمساعدة صديقه فالديس وكورنيليوس.

إن رغبة فوستس في محاكاة الإله، الذي يقدر الحياة والموت، تجعله إنسانًا خاطئًا من الناحية اللاهوتية، فضلًا عن إدراكه التام الذي أكد عليه فوستس ذاته بأن عقاب الخطيئة الموت، بيد أن كل ذلك يتهاوى أمام رغباته الداخلية التي تدفعه إلى امتلاك قوى السحر لكي يعادل بها قوة الإله ذاته في إمكانياته غير المحدودة.

هذا ويبدو أن مارلو كان متأثرًا أيضًا بالمسرح الديني وتراث العصور الوسطى اللذين يعتبر مارلو ذاته امتدادًا لهما، وذلك حين استغل هذا التراث في استخدام ملاك الخير وملاك الشر، فهناك من يحذره وهناك من يدفعه إلى تحقيق رغباته الداخلية، وذلك لكي يبين لنا الصراع الدرامي الذي يدور داخل عقل فوستس.

ملاك الخير: فلتطرح ذلك الكتاب الملعون جانبًا ولا تتطلع إليه وإلا أغواك

وأضل روحك وأنزل على رأسك غضب الله الثقيل^{xxii}.

أمّا ملاك الشر فإن كلماته ليست إلا صدى لعقل وفكر فوستس.

ملاك الشر: أمض يا فوستس في ذلك الفن الشهير الذي يحوي كل كنوز الطبيعة: ولتكن على الأرض كالإله في السماء سيداً ومتسلطاً على سائر العناصر^{xxiii}.

ولا شك في أن مارلو، وبذكاء شديد وقدرة درامية فائقة، قد وَّحد بين أعماق ورغبات فوستس وبين كلمات ملاك الشر. لقد كانت لدى فوستس ومنذ البداية طموحات غير محدودة، بل كان على استعداد لكي يتخلى عن كل شيء، حتى ولو كان ذلك الشيء هي مملكة السماوات.

فوستس: ... أما دراسة اللاهوت فإنها أحقر الدراسات الثلاث. فهي كريهة بغيضة تافهة حقيرة!!^{xxiv}.

وإذا كان الباحث قد أكد في بداية بحثه على أن خيال الكاتب يلعب دوراً هاماً في خلق العمل الفني، فإن مارلو أيضاً جعل خيالات فوستس تتجاوز الحدود البشرية لتنقله إلى عالم غير محدود القدرات، بل تدفعه إلى تحقيق أحلامه غير المحدودة.

فوستس: ... لا، بل لم تكن كلماتكما فحسب بل خيالاتي أنا أيضاً هي التي جعلتني أقبل هذا دون معارضة. لأن رأسي كانت تدور بالأفكار حول قدرة السحر^{xxv}.

يجدر التذكير إلى أن مارلو قد جعل شخصية فوستس هي الشخصية الدرامية الأساسية والمحورية، بحيث تبدو كل الشخصيات الأخرى شخصيات ثانوية، ذلك لأن مارلو أراد أن يحمل فوستس كل أفكاره اللاهوتية والفلسفية التي يؤمن بها مارلو نفسه، وأن يجعله ينطلق بكل تلك الأفكار. ومن المعلوم أن مارلو كان ملحدًا، بل كان يكتب مقالات في الإلحاد أيضاً.

فعندما أُجري تفتيش مسكن الكاتب المسرحي "توماس كيد" وجدت الشركة كتابات إلحادية، وقد اعترف كيد بأن تلك الكتابات تخص كريستوفر مارلو الذي كان يسكن معه واستطاع كيد أن يثبت ذلك^{xxvi}.

أمّا الكاتب المسرحي الموهوب "جرين" فقد ألمه أن ينساق مارلو تجاه الإلحاد والأفكار الميكافيلية التي تبعده عن الخالق "لماذا لا ترى موهبتك وذكاءك عظمة الخالق؟ هل أصابتك عدوى سياسة ميكافلي التي درستها؟ يا للغباء! إن تعاليمه سخافات مضطربة كافية في وقت قصير لإفساد أجيال من الناس... وهل أنت يا صديقي تريد أن تكون خلفاً له؟" xxvii.

ومن ثم نستطيع أن نؤول ونفسر ذلك بأن كثيراً من أفكار فوستس ليست في الواقع إلا أفكار مارلو ذاته والتي آمن بها كإنكار العالم الآخر بعد الموت.

فوستس: ... أتظن أن فوستس من الحماقة أن يتصور أن هناك آلاماً بعد انقضاء هذه الحياة؟ صه! ما هذه إلا ترهات وسفاسف ترويه قصص العجائز xxviii.

ثم تبدأ مرحلة جديدة من مراحل فوستس الدرامية وخصوصاً بعد تمكُّنه من فن السحر الأسود حيث يستحضر ميفستوفيليس من خلال كلماته وطقوسه الوثنية وإنكاره لكل قوى الخير.

ويعتبر هذا المشهد الدرامي مشهداً فلسفياً ميتافيزيقياً لاهوتياً، حيث يدور الحوار فيه عن الجحيم والخطيئة ومأساة إبليس وعن الأرواح الخاطئة التي تأمرت ضد الخالق. إن فوستس يعتقد أن كلماته، وطقوسه السحرية هي التي أحضرت ميفستوفيليس، غير أن الحقيقة غير ذلك، تلك الحقيقة التي صدمت فوستس، والتي كان يجب من خلالها أن يتعظ ويتراجع عن أهدافه الشيطانية، غير أن فوستس لم يكن يرى سوى إرادته التي أراد تحقيقها والتي كانت أقوى من كل كلمات الوعظ والتحذير غير المباشر.

ميفستوفيليس: كانت السبب، إلا أنها كانت وليدة المصادفة. إذ عندما نسمع شخصاً يغير ويبدل اسم الله ويتنصل من الكتاب المقدس ويتنكر للمسيح مخلصه، نهرع إليه أماً في نظفر بروحه العظيمة. أننا لا نذهب إليه ما لم يسلك تلك الطرق التي تهدده باللعنة xxix.

كما أننا نجد أن هناك إشارة ذكية من المؤلف إلى إبليس الذي استولى عليه الطموح والكبرياء، ومن أجل ذلك أصبح ملعوناً وطُرد من مملكة الرب. وكان يمكن لـ فوستس أن

يتوقف عند هذا الحد، غير أن طموحه غير المحدود قد تغلب على كل تلك الإشارات التحذيرية وغير المقصودة من ميفستوفيليس حين تكلم بصدق عن قصة إبليس. إن رغبة فوستس في محاكاة القدرات الخارقة للآلهة كانت أقوى من الارتداد مرة أخرى إلى أحضان الدين والتمسك بالمثلّص، بل أصر على فكره، والسير في هذا الطريق الذي يشبع احتياجاته النفسية والذاتية أيضًا.

فوستس: ... لا رئيس إلّا أمير الجحيم، قد منحه فوستس نفسه فلم تخفه
اللعنة، لأنه لا يميز بين الجنة والنار:

إن روحه ستكون مع الفلاسفة القدامى ممن لم يعتقدوا في الثواب
والعقاب بعد الموت^{xxx}.

وبذلك يكون فوستس قد اقترب أكثر من عالم إبليس ذاته، منصاعًا لإرادته ورغباته وطموحاته.

ثم يبدأ مارلو في تسليط الضوء على العقاب السماوي الذي ينتظر الخطأ، ونعني به الجحيم، فإننا نستطيع أن نتلمس أن هناك حسًا فلسفيًا لدى مارلو في هذا المشهد، إذ إن الجحيم ليس نارًا حارقة فقط، بل هو شيء أعقد وأشد قسوة من النيران المتقدة. إن خيال الكاتب يقودنا إلى تصور المعنى الحقيقي للجحيم والعذاب الأبدي، وذلك بطريقة فلسفية فيها لمحات من الرومانسية الممتزجة بالصوفية.

ميفستوفيليس: في الجحيم.

فوستس: كيف هذا وأنت طليق ولست في الجحيم.

ميفستوفيليس: بل أني في الجحيم، ولست خارجًا عنه.. ألا ترى أن حرمانني من رؤية العلي العظيم ومن نعيم الجنة الأبدي الذي ذقته لأشدّ عذابًا من ألف جحيم وجحيم!^{xxxi}.

يحاول الباحث أن يبحث عن الأسباب التي جعلت فوستس نفسه لا يتعظ من تلك الكلمات الصادقة التي ينطق بها ميفستوفيليس! إن تفسير ذلك يعود إلى أن فوستس لا يرى سوى طموحاته الذاتية. بل إنَّ فوستس يتساءل عن عالم ميفستوفيليس:

فوستس: ومن تكونون أنتم يا من تعيشون مع إبليس؟

ميفستوفيليس: أرواح تعسة تأمرت مع إبليس ضد إلهانا فحلت عليها اللعنة
الأبدية، وهوت معه^{xxxii}.

يبدو أن مارلو قد جسد شخصية ميفستوفيليس بطريقة، إذ إنه ليس رمز الشر فقط، بل بداخله حزن حقيقي، ومعاناة صادقة، وحسرات تمزقه، ولذلك نجد أن كلماته ليست إلا إشارات تحذيرية لفوستس حتى لا يعاني مثله. هذا التجسيد يعتبر، من وجهة نظر الباحث، شيئاً جديداً يضيف على الشخصية المغرقة في الشر ملامح إنسانية تعاني مثل البشر.

ميفستوفيليس: ... فلتقلع يا فوستس عن هذه المطالب السخيفة التي توقع
الرعب في روعي الواهنة^{xxxiii}.

إن فوستس لا يزال أسير رغباته الداخلية، حتى ولو اضطر إلى توقيع صك بدمه يقدمه إلى إبليس العظيم يسلمه فيه روحه وجسده في الحياة، وفي العالم الآخر مقابل متع دنيوية مدتها أربعة وعشرون عامًا، يستمتع خلالها بكل رغباته الجسدية والفكرية والعلمية أيضًا.

ويبدأ مارلو بعد ذلك في تجسيد لحظات الاسترجاع العقلي والحسي والديني لفوستس، فهو يشعر بأنه قد سقط في الخطيئة وأنَّ اللعنة ستحل عليه منذ أن أنكر الأديان وتخلّى عن المسيح وتعاطى الفن الأسود. إنها لحظات يأس قاسية وإحباط نفسي بالنسبة إليه، وخصوصاً أنه كان عالماً لاهوتياً. لقد اكتشف أن رغباته وأحلامه كانت أقوى من أي شيء وُجد في هذا العالم، حتى ولو كان هذا الشيء مملكة السماء. لم يكن أمامه سوى طريق السحر – بالرغم من أنه محرم وخطيئة لاهوتية أيضاً – لكي يحقق به رغباته وأحلامه وأهدافه. لقد كان يدرك في دخيلة أعماقه الحقيقة التي قادته إلى هذا المصير، والتي تتركز في تلك الجملة الاستكشافية للذات.

فوستس: ... إن الإله الذي تخدمه هو رغبتك الذاتية^{xxxiv}.

وإزاء تلك اللحظات التي يسترجع فيها فوستس ذاته يجسّد لنا مارلو عقله الباطن الذي يجسّد الصراع بين الخير والشر، حيث جعل ملاك الخير يطلب منه هجر السحر والعودة إلى التمسك بالدين والتوبة والاستغفار، أمّا ملاك الشر فيدفعه إلى إحياء أحلامه والسيطرة على العالم.

6-تمثيلات العنف والسادية والجحيم ودلالاتها بمفرق مشاهد النص

ونحن نجد أنفسنا أمام مشهد طقسي حين يطلب من فوستس أن يوقع صكاً بدمه ليكون إبليس العظيم في خدمته، وضمناً لمصداقية الاتفاق، حيث سيسلم فوستس

جسده وروحه إلى إبليس، وهذا يعني لاهوتياً اتساع مملكة إبليس في مواجهة الرب. وبحس
درامي مرهف يجسّد لنا مارلو موقف فوستس في تلك اللحظات، إذ إنه يجد أن دمه تجلّط
فلا يستطيع أن يكتب الصك، كما لو كانت هناك قوة خفية تدفعه إلى عدم إتمام هذا
الاتفاق الملعون.

فوستس: علام يدل تجلط دمي؟

أهو غير راض عن كتابة هذا الصك؟

لماذا هو لا يجري حتى أمضي في الكتابة.

إن فوستس يمنحك روحه آه، هنا توقف.

فلماذا لا تكتب؟ أليست روحك ملغاً لك؟

إذن فلتكتب من جديد – فوستس يمنحك روحه^{xxxv}.

يسارع ميفستوفيليس إلى تقديم جمرة نار لكي يتدفق الدم بغرض إنهاء الصفقة.
والحوار الذي يدور بين فوستس وميفستوفيليس هو حوار بنيوي ثنائي يدور بين عالم
البشر وعالم الجحيم، وهما عالمان يغالبان بعضهما غواية ورغبة ورهبة ويميطان الغطاء
عن نظرة وفلسفة وموقف مارلو من الساديين:

فوستس ... ماذا يفيد سيدك بروحي هذه؟

ميفستوفيليس: اتساع مملكته.

فوستس : وهل من أجل هذا يغويننا؟

ميفستوفيليس: إنه لما يغري الأشرار أن يشاركهم الآخرون في عذابهم

فوستس : وهل تشعرون بألم يا من تعذبون الناس.

ميفستوفيليس: نشعر بعذاب عظيم كما تشعر نفوس البشر^{xxxvi}.

وبذلك نجد أن هناك نوعاً من الاتحاد بين كل من فوستس وميفستوفيليس، حيث
وحدت الخطيئة واللعنة بينهما. كانت هناك فرصة أخرى لـ فوستس لكي يتعظ ويندم
وينسلخ من خطايا السحر واللعنة الأبدية التي ستحل عليه، ولكن فوستس لا يرى سوى
فكرته ورغبته وهما أقوى من كل شيء.

7-أوزار الجحيم وعقابيله في مسارد/ فوستس

ثم يبدأ مارلو في الانتقال بنا إلى عالم آخر حيث يجسّد لنا الجحيم، ذلك الجحيم الذي
يريد فوستس أن يعرف حقيقته.

ميفستوفيليس: في ثنايا هذا العالم نتعذَّب ونظل مغلَّدين في العذاب.

فليست للجحيم حدود ولا أبعاد.

فحيثما نكون يوجد الجحيم.

وحيثما يكون الجحيم نوجد نحن.

وجملة القول عندما يتحلل العالم كله، ويتطهر

كل مخلوق من أدران الخطيئة تصير كل الأماكن

جحيماً، ما لم تكن جنة النعيم.^{xxxvii}

إن تجسيد الجحيم بهذا الشكل لا ينفصل بأي حال من الأحوال عن الخطايا وعن الذنوب التي يرتكها البشر. ولا شك في أن كلمات الجحيم قد جسَّدها أيضاً كل من "توماس كيد" في مسرحية (المأساة الإسبانية) و"شكسبير" في مسرحية (هملت)، حيث يشكِّلان ومعهما "كريستوفر مارلو" أهم كتاب العصر الإليزابيثي، ففي المأساة الإسبانية لـ "توماس كيد"، يصف لنا رؤية أندريا للجحيم:

وطريق إلى اليسار، ينحدر بشكل رهيب،

في غور مفاجئ إلى قرار الجحيم،

حيث تهز زبانية جهنم الدموية سياطها التي صنعت من الصلب.^{xxxviii}

أما شكسبير فيقدم لنا الجحيم، وذلك على لسان شبح هملت:

الشبح: أنا روح أبيك. قضي علىَّ أن أهيِم في الليل، وأن أحوِم في النهار،

مصطلياً سعيِر النار بما اجترحت من الآثام. ريثما أظْهر من أدرانها.

لو لم يكن محظوراً علىَّ أن أفشي أسرار سجنِي، لقصصت عليك ما

يضعُض النفس، ويجمد الدم، ويخرج العينين من الوقبين..^{xxxix}

ولا شك في أن هناك لمحات خيال رائع عن هؤلاء الكتَّاب الذين أعطونا من خيالهم

لمحات عن الجحيم الذي هو مأوى أصحاب الخطايا.

إن فوستس في لحظة من لحظات الثقة الزائدة بذاته يرى أن الجحيم ليس إلّا مجرد خرافة، بل إن الشيء اللافت للنظر هو تجسيد شخصية ميفستوفيليس بهذا الشكل الموضوعي، فهو ليس شخصية تقليدية مغرقة في الشر، بل هو يحاور بذكاء ووضوح وليس هناك شيء يخفيه، بل كان واضحاً وصادقاً أيضاً في كلماته. إنَّنا نجدُه يبيِّن فوستس بكل

الحقائق المترتبة على قراره، وعلى العكس من ذلك نجد أن فوستس يستخف بالجحيم ويراه مجرد خرافات للعجائز، بل نجد أن هناك نوعاً من السخرية تجاه كلمات وفكر فوستس. ميفستوفيليس:.. فلتمض في زعمك حتى تغيره التجارب.^{xl}

8-التأرجح بين التوبة والاستمرار في الخطيئة عذابات نفسية

إذا كان ميفستوفيليس نفسه يتعذب، فلماذا لا يعود فوستس مرة أخرى إلى ذاته وينجو بجسده وروحه من اللعنة الأبدية ومن الجحيم؟ وعلى ضوء ذلك نجد أن فكر فوستس قد جعل اللعنة تنبع من داخل ذاته لأن طموحه لا يقف عند حد، ومن ثم أيضاً عليه أن يتحمل نتيجة أفعاله. وبالرغم من مضيئه قدماً في هذا العالم الملعون، عالم السحر، إلّا أننا نجد أن هناك لحظات يشعر فيها فوستس بالندم، إذ لن ننسى مطلقاً أنه كان عالماً لاهوتياً، ومن ثم نجد أن لديه رغبة في التوبة والمغفرة والعودة إلى الخالق مرة أخرى، غير أن إحساسه بالخطيئة يجعله في حالة صراع نفسي.

فوستس: إن قلبي قد تحجّر فلا أستطيع التوبة، ولا أكاد أقوى على النطق بهذه الكلمات:

الخلاص - الإيمان والسماء..^{xli}

وفي لحظات اليأس راودت فوستس فكرة الانتحار للخلاص ممّا أوقع نفسه فيه، ولكن التناقض يظهر جلياً في شخصيته، وذلك حين فكر في المتع الدنيوية والعقلية والمادية، تلك المتع التي سيطرت عليه. وفعلاً بدأ رحلته العلمية لكي يستوعب العلوم الأخرى وخصوصاً علوم الفلك والسموات وحركات النجوم، لكي يرضي فضوله العلمي، وبالتالي استبعد فكرة الانتحار وواصل طرح الأسئلة الفلسفية التي أوصلته إلى هذا السؤال الهام.

فوستس:.. ولكن هل لك أن تخبرني من خلق العالم؟

ميفستوفيليس: لن أجيبك على هذا السؤال.^{xlii}

إن ميفستوفيليس المعذب لم يجرؤ على ذكر الله، حتى لا يفكر فوستس في الردة مرة أخرى، غير أن مارلو يسارع فيظهر له ملاك الخير.

ملاك الخير: فلتفكر يا فوستس في الإله الذي خلق الكون.^{xliii}

ولكن ميفستوفيليس يذكره بالصك الذي لا يجب أن ينساه. وإزاء الصراع النفسي الرهيب الذي يجيش في عقل ومشاعر فوستس نتيجة فعلته المحرمة والرغبة في التوبة، يبدع مارلو في نسج وصياغة هذا الحوار.

فوستس: اذهب أيها الروح الملعون إلى جهنم البشعة!
فإنك أنت الذي خلعت اللعنة على روح فوستس المعذب.
ملاك الشر: لقد فات الأوان.

ملاك الخير: لن يفوت مقي استطاع فوستس أن يتوب ويندم.
ملاك الشر: إنك إن ندمت مزقتك الشياطين إربًا إربًا.
ملاك الخير: تب ولن يمسوا جسدك بسوء.

فوستس: أيا مسيحي – يا مخلصي

فلتأت لتنقذ روح فوستس المعذبة!^{xliv}

إن الله يغفر الذنوب، ويقبل التوبة، كما نادى بذلك جميع الأديان، وفوستس يدرك
أن السيد المسيح كان يدعو إلى مغفرة الخطايا، شأن كل الأنبياء عبر التاريخ. وإزاء الصراع
النفسي الذي يعيشه فوستس في تلك اللحظات، يظهر له إبليس.
إبليس: إن المسيح لن ينقذ روحك لأنه عادل.^{xlv}

والشيء اللافت للنظر أن يتكلم إبليس بتلك الصورة عن السيد المسيح وعدالته لأن
هناك صغًا قد وقّع بالدم وبرغبة صاحبه، ومن ثم أصبح إبليس يمتلك روح وجسد
فوستس. ويرضخ فوستس لهذا العدل الذي أقره إبليس ذاته، بل نجد أنه يطلب المغفرة
من إبليس ذاته، وهذا التأرجح بين التوبة والاستمرار في الخطيئة يبيّن لنا مدى الصراع
النفسي الرهيب الذي يعاني منه فوستس، بل نجد أنه في حالة حصار نفسي رهيب، ولكنه
يستسلم لإبليس ويرفض الله والمسيح.

فوستس: لن أذكره من الآن فصاعدًا. اغفر لي هذا..

إن فوستس يقسم أنه لن يتطلع إلى السماء،

ولن يذكر اسم الله أو يصلي له.

وسأحرق أنا جيله وأذبح قساوسته

وسأجعل أرواحي تدمر كنائسه.^{xlvi}

إننا نجد لأول مرة في الدراما أن شخصية درامية تطلب المغفرة من إبليس! وبذلك يكون
سقوط فوستس في الخطيئة قد تجاوز كل الحدود الإنسانية. إن المتلقي يشعر بنوع من
التعاطف مع تلك الشخصية التي دفعها الطموح إلى إنكار كل المقدسات الدينية. وإمعانًا
في التأثير على فوستس من قبل إبليس يتم الترفيه عنه باستعراض الخطايا السبع والتي

تلهي فوستس عن التفكير في الإله من ناحية، ولكي يرى قدرة أشياء جديدة على التجلي أمامه من ناحية أخرى، فضلاً عن بيان القدرة غير المحدودة لقوى الشر. ولكن يجب أن نلاحظ هنا أن هناك إرهاصات بين المشاهد تبين لنا وبطريقة لاشعورية رغبة فوستس في التوبة وخصوصاً كلما مر به الزمن، فهناك لحظات يناجي فيها فوستس ذاته، وتأويل ذلك أن بداخل فوستس بذور الإيمان.

فوستس: ... ما أنت يا فوستس إلا رجل حكم عليه بالموت!

كما أن مصيرك يدنو من نهايته

إن اليأس يملأ أفكارك بالشكوك،

فلتقلل من هذا الإضطراب والقلق بالنوم الهادئ

صه! لقد منح المسيح الخلاص للص وهو فوق الصليب

إذن فليهدأ عقلك يا فوستس^{xlvi}.

إن الإحساس بالخطيئة والرغبة في التوبة والمغفرة، بالرغم من ثقل ومرارة الفعل الذي أقدم عليه فوستس، يجعلانه يتلمس الأمل في المغفرة. وهناك مشهد بالغ الأهمية بالنسبة إلى المضمون الديني والفلسفي لهذا النص الدرامي، حيث نجد أن هناك رجلاً عجوزاً يحث فوستس على التوبة، في حين يعارض ميفستوفيليس هذا الحث، فيشتد الصراع الدرامي داخل فوستس ممزوجةً بندم شديد ومرارة ورغبة في العودة إلى الإله الذي أنكره.

فوستس: أين هي الرحمة الآن، يا فوستس الملعون؟

إني أتوب، ومع ذلك فالإس يتملكني:

والجحيم تسعى جاهدة أن تستحوذ عليّ:

فماذا أفعل حتى أتجنب فخاخ الموت؟^{xlvi}

فالموت بالنسبة إلى فوستس يعني الجحيم الأبدي، وتحت تأثير وتحذير ميفستوفيليس بأن الشياطين سوف تمزقه إذا أخل بالصك الموقع بدمه، يطلب فوستس منه أن يعذب ذلك الرجل العجوز لأنه قد أيقظ بداخله الرغبة في التوبة، غير أن رد ميفستوفيليس كان صادمًا بالنسبة إلى فوستس.

ميفستوفيليس: إن إيمانه لعظيم، ولن أستطيع مساس روحه^{xlvi}.

أي أن من يمتلك الإيمان الكامل لا تستطيع القوى الشيطانية أن تمسه أو أن تصيبه بالسوء.

إن كل شيء الآن قد أصبح في متناول فوستس، فقد حصل على المعرفة والشهرة والمتعة، بل والقدرة على استحضار الأرواح مثل روح الإسكندر المقدوني وعشيقته، وروح هيلين التي كانت السبب في حرب طروادة.

ثم يمضي الزمن أربعة وعشرين عامًا، ومن ثم ما الذي يمكن أن يحدث لـ فوستس بعد انتهاء مدة الصك!!؟

وهنا يدرك فوستس فداحة فعله، ويدرك أيضًا أن كل شيء زائل وأنه خسر كل شيء فلا يملك إلا أن يبدي ندمه وتوبته والاستعانة بالمسيح لكي ينقذ روحه وجسده.

وهنا يرى الباحث أن كلمات السيد المسيح: "ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه"، والتي تتوافق تمامًا مع مأساة فوستس وخصوصًا في لحظات ندمه وبأسه. فقد أدرك فوستس معنى ومضمون تلك العبارة بداخله في هذا الموقف الدرامي.

ويرى الباحث أيضًا أنه بالرغم من إلحاد فوستس إلا أنه لا يمكن للإنسان أن يتشبث بالإلحاد الكامل، ذلك لأنه في لحظات الضعف يطلب النجاة من القوى الغيبية التي ربما قد تساعده في مواقفه الصعبة، وهذا تفسيرنا لكل الكلمات التي يندم بفضلها فوستس ويستغفر خالقه.

ومن أروع المشاهد التي قدمها لنا مارلو تلك المشاهد التي يحاول فيها فوستس الاستغفار وإبداء الندم والرغبة الصادقة في التوبة، ولكننا لا نعرف إذا كان الخالق سيقبل توبته أم ستحل عليه اللعنة الأبدية؟

إن الكلمات المؤثرة التي ينطق بها فوستس في كل لحظة من لحظات الزمن الذي يمضي به، لشعوره بأن الجحيم في انتظاره، يؤثر في المتلقي بشكل كبير، لأنه إنسان وقد أخطأ بفعل تأثير طموحاته، ثم ما لبث أن أدرك خطأه، ولا يريد سوى التوبة والاستغفار.

فوستس: يا إلهي!

إذا لم ترحم روحي،

فمن أجل المسيح الذي فدانني بدمه

ضع نهاية لآلامي المستمرة دع فوستس يعيش في الجحيم ألف

عام، مئة ألف ثم ينجو آخر الأمر!.

إنه يطلب الغفران، يطلب الرحمة كإنسان سقط في الخطيئة ثم أراد العودة مرة أخرى إلى القوى السماوية التي أنكرها في لحظات الغرور ومحاولة التشبه بالآلهة. إن موضوع فوستس هو موضوع إنساني، إذ إن ذلك الخطأ الذي وقع فيه ليس نتيجة القدر أو النبوءات، كما نعرفها من الدراما اليونانية، بل إن ذلك الخطأ ينبع من الذي تجاوز الحد. وهذا ما عبّر عنه مارلو على لسان الجوقة:

الجوقة ... وما كاد يمتلئ قلبه بالمعرفة حتى ملأ الغرور رأسه، فأخذ يحلق في السماء إلى أبعد مما يتحمل جناحان من الشمع، وسرعان ما تأمرت عليه السماء فأذابت جناحيه وهوى من عليائهⁱⁱ.

ولذلك كان سقوط فوستس في الخطيئة سقوطاً لاهوتياً رهيباً ومأساوياً أيضاً. ومن جهة أخرى، نستطيع أن نشير هنا إلى فكر آرثر شوبنهاور، وخصوصاً إذا حاولنا أن نربط بين أفكار شوبنهاور وبين مأساة فوستس، باعتبارها محاولة لتطبيق فكر شوبنهاور على تلك الشخصية وباعتبارها أيضاً محاولة لتأويل تلك الأفعال التي فرضتها إرادة ورغبات فوستس التي أراد بها أن يحقق وجوده ويتخطى الحدود الإنسانية.

فلم يرغب فوستس في الارتقاء بحياته فحسب، وإنما أراد أن يكون إلهاً أيضاً.

فوستس: ... فلتوطن نفسك يا فوستس على ذلك لتصبح أحد هذه الآلهةⁱⁱⁱ.

وبذلك كان فوستس في قمة الطموح اللامشروع الذي يؤدي بصاحبه إلى الهلاك والتمادي في العصيان والعناد المرضي، لأنه تعدى سقف الطموحات البشرية المشروعة التي يمكن للإنسان تجسيدها من دون أن يتأذى أو يؤذي غيره.

يسع القول في الأخير إن "كريستوفر مارلو" كان حقاً كاتباً درامياً له مكانته المتفردة في الريبتروار المسرحي العالمي بفضل قدرته على معالجة موضوع بهذا الحجم (قصة فوستس) الذي توأم فيه بين الفلسفة واللاهوت والميتافيزيقا والصراع بين الخير والشر وكل ذلك عرضه في نسيج درامي يأخذ بالألباب، ويكتم الأنفاس سواء في زمنه أو حتى الآن؛ إذ يبقى التساؤل قائماً حول جرأة الكاتب في الطرح ضارباً بهيمنة الكنيسة عرض الحائط، ولم يهب فيما تناوله ضمن مسار الدكتور فوستس الذي لم يكن في الحقيقة غير كريستوفر مارلو الذي حاول أن يسخر العمل للروح بأفكاره وأيديولوجيته فيما يتعلق ببعض القضايا الدينية التي تندرج ضمن الثلاثي المحرم، وأن يطمح البطل إلى أن يصبح إلهاً فذاك قمة الجرأة في الطرح والتناول.

هذا وقد أفاد المنهج الهيرمينيوتيكي التأويلي في استنطاق النص دلالات ومعاني وموضوعا وفكرة وحبكة وشخصيات وصراعا دراميا حادا ليخلص إلى نتيجة منطقية تمثلت في حيرة وتأرجح فوستس بين الاستمرار في الخطيئة أو التماس الصفح كأى إنسان مارس الخطايا ولما تقدم به العمر فكر في العدول عما كان عليه من انحراف وتفكك أخلاقي وفكري، لكن الجميل حين آل عمر النص إلى الانتهاء أن كفة التوبة ترجحت بالرغم من أن الوصول إلى تجسيدها كان عسيرا جدا لأنه رافقه الصراع النفسي وتضارب الهواجس والرغبات في أنا فوستس الذي لم يعبأ لحظة بذات الآخر. وما يلفت الانتباه حقا هو كيفية بناء مارلو لشخصية بهذا الكم من التناقضات والجرأة في ولوج دهاليز السحر وطقوسه العقيمة حتى نجح في تقديم الشخصية الدرامية المركبة للدكتور فوستس الذي لم يكن جاهلا بالعلوم التي أهلته إلى أن يتقلد رfid العمل والسير به تصاعديا إلى قمة التأزم، ثم ينزل من مناشدته للألوهية إلى العدول عنها بالتماس التوبة التي لا محالة ورثته صفح كل من غضب من تطرفه الفكري والديني.

الهوامش:

مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، ت: نظمي خليل، روائع المسرح العالمي، عدد25، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ب.ت

ب/ المراجع أبوطالب، أسامة: هيرمينيوتيك المسرح دراسات مسرحية، دائرة الثقافة، الشارقة، 2018، ص15.

(2) المرجع السابق نفسه، ص22.

(3) القرآن الكريم، سورة الكهف، آية رقم 78، ص302.

(4) القرآن الكريم، سورة الكهف، آية رقم 82، ص302.

(5) القرآن الكريم، سورة الأعراف، آية رقم 53، ص158.

(6) القرآن الكريم، سورة يوسف، آية رقم 6، ص236.

(7) القرآن الكريم، سورة يوسف، آية رقم 21، ص237.

(8) القرآن الكريم، سورة يوسف، آية رقم 100، ص247.

(9) القرآن الكريم، سورة يوسف، آية رقم 44، ص241.

(10) جوته، فاوست، ج 1، ت: محمد عوض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة، القاهرة 1971، ص 53.

(11) الكتاب المقدس: العهد القديم سفر التكوين إصحاح 2، آية 18.

(12) مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، ت: نظمي خليل، روائع المسرح العالمي، عدد 25، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ب.ت، ص 29.

(13) المصدر السابق نفسه، ص 30

(14) المصدر السابق نفسه، ص 32.

(15) المصدر السابق نفسه، ص 33.

(16) إنجيل يوحنا: إصحاح 8، آية 8.

(17) مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، مصدر سابق، ص 34.

(18) المصدر السابق نفسه، ص 32.

(19) المصدر السابق نفسه، ص 39.

(20) المصدر السابق نفسه، ص 33.

(21) المصدر السابق نفسه، ص 33.

(22) المصدر السابق نفسه، ص 34.

(23) المصدر السابق نفسه، ص 34.

(24) المصدر السابق نفسه، ص 36.

(25) المصدر السابق نفسه، ص 36.

(26) كيد، توماس: المأساة الإسبانية، ت: محمود علي مراد، مسرحيات عالمية، عدد 50، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة سبتمبر 1967، ص 6.

(27) مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، مصدر سابق، ص 6.

(28) المصدر السابق نفسه، ص 63.

(29) المصدر السابق نفسه، ص 46.

(30) المصدر السابق نفسه، ص 46.

(31) المصدر السابق نفسه، ص 47.

- (32) المصدر السابق نفسه، ص 47.
- (33) المصدر السابق نفسه، ص 47.
- (34) المصدر السابق نفسه، ص 56.
- (35) المصدر السابق نفسه، ص 59.
- (36) المصدر السابق نفسه، ص 57-58.
- (37) المصدر السابق نفسه، ص 62.
- (38) كيد، توماس: المأساة الأسبانية، مصدر سابق، ص 59.
- (39) شكسبير، وليم، هملت، ت: خليل مطران، دار نظير عبود، بيروت 1990، ص 43.
- (40) مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، مصدر سابق، ص 62.
- (41) المصدر السابق نفسه، ص 67.
- (42) المصدر السابق نفسه، ص 70.
- (43) المصدر السابق نفسه، ص 71.
- (44) المصدر السابق نفسه، ص 71.
- (45) المصدر السابق نفسه، ص 71.
- (46) المصدر السابق نفسه، ص 72.
- (47) المصدر السابق نفسه، ص 104.
- (48) المصدر السابق نفسه، ص 115.
- (49) المصدر السابق نفسه، ص 115.
- (50) إنجيل متى، إصحاح 16، آية 27.
- (51) مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، مصدر سابق، ص 124.
- (52) المصدر السابق نفسه، ص 30.
- المصدر السابق نفسه، ص 33.

-قائمة المصادر والمراجع:

أ/ المصادر:

القرآن الكريم

ب/ المراجع العربية:

أبوطالب، أسامة: هيرمنيوتيك المسرح دراسات مسرحية، دائرة الثقافة، الشارقة، 2018.

ج/ المراجع المترجمة:

جوته، فاوست، ج1، ت: محمد عوض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة، القاهرة 1971.

شكسبير، وليم، هملت، ت: خليل مطران، دار نظير عبود، بيروت 1990.

كيد، توماس: المأساة الإسبانية، ت: محمود علي مراد، مسرحيات عالمية، عدد 50، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة سبتمبر 1967

مارلو، كريستوفر، مأساة الدكتور فوستس، ت: نظمي خليل، روائع المسرح العالمي، عدد 25، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، ب.ت.